تقديم

بقلم الفقيد الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد (١)

« اذا ابتعد المسافر عن مدينة أخذت تظهر له من بعيد الأمكنة العالية منها ، وكلما أوغل فى الابتعاد وأمعن فى السير صار لا يرى الا أكثر الأمكنة اصعادا فى الجو ، كذلك الناظر فى تاريخ الأمة العربية فى عهد الاسلام كلما ابتعدت بنا عنها قافلة الزمن وتلفت

---

(١) كان فقيد الادب الكاتب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد قد تفضل حين ظهور الطبعة الاولى من هذا الكتاب سنة ١٩٣٨ فكتب الفصل الآتى فى جريدة الدستور ، وقد استأذنته حينذاك فى أن أجعل هذا الفصل القيم مقدمة للطبعة الثانية من هذا الكتاب لما ألقاه من ضوء ساطع على حياة عبد الرحمن الداخل وما اشتمل عليه من تحليل رائع ، وقد وافق رحمه الله على ذلك مشكورا ، ويعز على أن تظهر هذه الطبعة الثانية بعد انتقاله من عالم الدثور والفناء الى عالم الخلود والبقاء تاركا أعمق الاثر فى نفوس أصدقائه ومريديه وعارفى فضله وسائر معاصريه

الركب الى الوراء صرنا لا نلمح الا الشخصيات البارزة المتسامية اللائحة فى الجو التاريخى للماضى ، ويمكننا أن نرد أكثر ما نلمحه من تلك الشخصيات الى بيتين لعبا أكبر دور فى تاريخ العرب السياسى ، وهما بنو أمية وبنو هاشم ، وهما الشعبتان النابعتان من صلب عبد مناف »

قدم الكاتب المحقق الأستاذ على أدهم فصلا من فصول رسالته « صقر قريش » بهذه الكلمة الصادقة فى تصويرها ومجازها

***

الحق ان تاريخ الأمة العربية فى عهد الاسلام حافل بالسير العظيمة التى لا تزال مغبونة مجهولة المقدار فى موازين التاريخ الحديث ، لم تصب ما أصابه أبطال اليونان والرومان الأقدمين من درس واستقصاء ، ولم تصب ما أصابه أبطال العصر الحاضر من تنويه وذيوع بين عامة القراء ، وانها مع ذلك لتتسع للمراجعة والتحليل وتخرج من بوتقة الامتحان على مثال يضارع أحسن الأمثلة ، ويوافق جميع المشارب والأذواق ، أيا كانت المقاصد التى نبتغيها من القراءة

واليك مثلا « صقر قريش » الذى كتب عنه الأستاذ أدهم رسالته القيمة ، وهو عبد الرحمن الداخل منشىء الدولة الأموية فى الأقطار الأندلسية ، فأى ذوق من الأذواق لا يجد كفايته ومتعته فى تاريخ هـذا الرجل المقدام ..

***

من كان يطلب المغامرات القصصية فهذا بطل يقل نظيره بين أبطال القصص التى تقوم وقائعها كلها على المطاردة والتعقب والنجاح فى الهرب والتخفى بين المشرق والمغرب والحضر والبادية والأصدقاء والأعداء ، رجل نجا من جيوش الدولة القائمة سابحا فى الماء وهو يكاد يعمى من الرمد ، ورأى بعينيه من هربوا مثله سابحين يتعبون فيعودون فيقتلون ، ويذهب هو فى الآفاق شريدا منبوذا يعانى الجوع والشظف حتى يتاح له مُلك دولة باذخة ، يهابها شارلمان ، والمنصور ..

ومن كان يطلب الحوادث والعظائم فهذه سيرة لا تنطوى صفحة منها الا على حادث يطيح بأمير ويرتفع بأمير ، ويتردد فى حوادثها جميعا كل ما ينفتق به عقل الانسان من حيلة وتدبير وتقدير

ومن كان يطلب العبرة الاجتماعية فمعرض العبرة هنالك واسع جد السعة بين أطوار التاريخ فى الأندلس وهى متداعية ، وبين أطوار التاريخ فى أمم الاسلام وهى ناهضة كابية ، وبين عرب وبربر وفرنجة ويهود ومسيحيين تتشعب بهم الغايات فتلتقى ساعة وتفترق ساعات ، وحسبك من ذلك انقسام المسلمين وحدهم الى مشارقة ومغاربة والى مضرية ويمنية والى شيع من كل قبيل يتبعون اليوم هذا القائد وينحرفون غدا الى ذلك القائد ، ولا يثبتون على نهج طويل ..

ومن كان يطلب تحليل النفوس ودخائل السرائر فهذا مجال تتكرر فيه عشرات الأسماء كل اسم منها يشتمل على صورة آدمية تخالف سائر الصور وتنبعث فى أعمالها بغير بواعث الآخرين

***

ذخيرة لا تنفد من ثروة المعرفة لجميع الطالبين والمريدين ، وقد جاءت هذه الرسالة مثلا يحتذى فى استخراج النفائس من هذه الذخيرة الوافرة ، لأن كاتبها الفاضل رجل يدرس التاريخ بنظر الفيلسوف وروية العالم وحماسة الأديب ، ويعرف من مذاهب الفلاسفة

العظام فى أسرار التاريخ ما ليس يعرفه عندنا غير أفراد معدودين ..

فاذا تناول قبيلا أو رجلا أو دولة نفذ الى موضع الملاحظة والحكمة مما تناوله فى مذاهب التعليل والتحليل ، فيقول مثلا فى التفرقة بين أخلاق العرب وأخلاق البربر : « والفارق الكبير بين مزاج البربر ومزاج العرب إن العربى بطبيعته نزاع الى السخرية ميال الى الشك ، أما البربرى فانه عميق العاطفة الدينية ، يأخذ الدين مأخذ الجد الصارم ويوغل فيه بغير رفق ، وهو شديد الاعتقاد كثير التصديق لما وراء الطبيعة ولا يفطن من فوره الى الجوانب الفكاهية فى الأشياء » ..

***

ويقول فى التفرقة بين بنى هاشم وبنى أمية من قريش : «كان بنو هاشم فى مكة سدنة الكعبة وأصحاب السلطة الدينية ، أما بنو أمية فكانوا أصحاب السيادة السياسية وذوى الجاه العريض والثراء الجم ، وكانت قوافل تجارتهم دائمة الارتحال بين مكة والشام حيث تأثير الحضارة البيزنطية مستفيض ، وقد أكسبتهم

التجارة معرفة بالحياة وخبرة بأحوال النفوس ، وكانت حماية التجارة تستلزم شحذ مواهبهم الحربية ، وكان نفوذهم السياسى فى مكة ينضج فيهم ملكات الرياسة وتدبير الأمور ، وقد كانوا أقدر من بنى هاشم على تصريف الأحوال الدنيوية واحتمال أعباء الحكم ، وقد قوى فيهم نفوذهم ورحلتهم للشام حب الاستمتاع بلذات الحياة والميل الى فاخر العيش كما زادتهم وفرة الثروة اقداما وصلفا ، وكانوا شديدى التمسك بالأرض ليس لهم أحلام متطايرة ولا خواطر محلقة ..

والحياة فى نظرهم مادة ملموسة وليست روحا محسوسة ، فهم لا ينظرون الى الدنيا فى ضوء فكرة مقدسة أو فى ظل مبدأ سام ؛ وليست نفوسهم من تلك النفوس التى تحاول أبدا أن تقيم الحياة البشرية الزائلة على أساس من الأبدية الباقية ، وتحرص على أن تستمسك بصخرة من اليقين فى بحر الحياة القلب ، بل كانوا يأخذون الحياة كما هى ويقبلونها على علاتها ، ويعملون على الاستفادة من فرصها والاستزادة من متعها ..

والحياة فى نظرهم ميدان لنفوذهم وبسط سلطتهم وتمديد شخصيتهم ومتسع للغلبة والاستعلاء واحراز

الغايات واشباع الشهوات ، وقد قاوموا الاسلام فى أول نشأته ؛ وكانوا أشد أعداء صاحب الرسالة حردا عليه ، ونالوه بألوان من الأذى والاضطهاد ، شأن الأرستقراطية فى عداوتها للنظم الجديدة ومستحدث الأفكار خشية أن تتزحزح عن مركزها وتفقد نفوذها ، ولكنهم أدركوا بغريزة الرجال العمليين أن اليوم للاسلام فلانوا للعاصفة وتكيفوا مع الظروف ، وبمهارة فائقة وكياسة عظيمة تمكنوا من تحويل تيار الاسلام الى مصلحتهم واعلاء شأن بيتهم »

***

وبعد أن وصف الطبيعة الأموية هذا الوصف المبين أخذ فى وصف « المزايا الشخصية » التى تفعت ذلك الأموى الكبير ــ عبد الرحمن ــ فى مغامراته ومحاولاته حتى حققت له ما يطمع فى تحقيقه رجل طموح ولد من أناس جبلوا على المداورة والعزم واغتنام الفرص والمتعة بالحياة ، فلا تزال ترى هذا الباقعة وهو يجترىء حينا ويروغ حينا ، ويصانع الأعداء تارة ويعتو على الأصحاب والأقرباء تارة ، ويختفى ثم يظهر ويظهر ثم يختفى ، ويرضى بمقدار ويغضب بمقدار ، ويستيئس استيئاس

المجانين حين لا مناص ، ويتماوت تماوت الثعلب حين لا جدوى من الهجوم ، ويعامل كل انسان بما ينبغى أن يعامل به من ثقة أو حـذر ومن محاسنة أو مخاشنة ، حتى بلغ ما يريد أو بلغ ما تريده له غريزة التاريخ ــ كما يسميها الأستاذ أدهم ــ من توجيه الحوادث وتحويل مجرى الحضارة واقامة النظام فى مقام الفوضى

وعندنا ان الرجل قد كشف عن نفسه ببيت واحد من نظمه فوق ما كشفته منه الأعمال والمساعى حيث قال :

سـعدى وحزمى والمهند والقنا

ومقـادر بلغت وحال حائل

وكان قد سـمع ما يتقوله عليه بعض حاسـديه اذ يستكثرون عليه ما فاء ويستصغرون ما عمل ويزعمون « انها الحظوظ والمصادفات » فجمع لهم أسباب فلاحه فى هذا البيت الذى لم يدع سببا من أسباب نجاحه وعلو نجمه ، وهى توفيق الحوادث وطبيعة العزم وقوة الجأش وتحول المقادير بأحوال الأمم التى نشأ فيها والتى رحل اليها ، فلو نقص سبب واحد من هذه الأسباب لما كان « عبد الرحمن » الداخل ولا كانت دولة ولا كان فلاح

والا فهل كان عبد الرحمن ينجح هذا النجاح لو لم يكن مولودا فى بيت الملك ، وكان من طبيعة القبائل البربرية والعربية أن تدين بالطاعة لمن له هذه السابقة فى الرياسة والامارة ؟ ..

وهل كان ينجح هذا النجاح لولم يسمع نبوءة العراف الذى قال لكبرائه فى صباه ان هـذا الصبى هو أمل العترة الأموية فى ظهور السلطان بعد أفول النجم وادبار الدولة ؟ ..

❋❋❋

وهل كان ينجح هذا النجاح لو لم يكن بربريا بما ورث من أمه ، وعربيا بما ورث من آبائه ، فهو بهذه المثابة مولود لسياسة البربر والعرب على السواء ؟

وهل كان ينجح هذا النجاح لو رحل الى المغرب فى زمان استقرار وصولة ، ولم يرحل اليه فى ذلك الزمن الذى تفرق فيه كل فريق حتى أوشك أن يمتنع الوفاق بين رجلين اثنين مدى أيام بله الشهور والأعوام ..

وهل كان ينجح هذا النجاح لو لم يخطىء أعداؤه كلما احتاج الى خطئهم على النحو الذى يشتهيه كأنما هو الموحى اليهم بالخطأ وهو المفكر لهم بما يرمى اليه

هو لا بما يرمون هم اليه ؟

وكل هذا وأشباهه يقال عن نابليون ويوليوس قيصر وتيمورلنك وموسوليني وهتلر وستالين وسائر هذه العصبة من المغامرين الناجحين : أسباب تكفى فى أزمانهم لبلوغ ما بلغوه بالقدرة التى فطروا عليها وعشرة أضعاف هذه القدرة لا تكفى لبلوغ ذلك المبلغ فى زمان آخر ، وهذا هو الشأن فى جميع عظماء الفتوح والمغامرات حينما نبغوا بين مشارقة أو مغاربة وفى عصر قديم أو حديث ..

***

وخلاصة ما يقال ان هؤلاء المغامرين يولدون وعندهم مرجح صغير فى كل مزية من المزايا ، ينفردون به عندما يتعادل الميزان للترجيح والتفضيل

فالذين كانوا فى ذكاء عبد الرحمن وشجاعته ودهائه كثيرون ، ولكنهم لم ينشئوا الدول ، ولم يغلبوا الأقران اما لأنهم أخطأوا العصر فى الميلاد ، واما لأنهم ولدوا فى غير البيت المطلوب ، ومرة لأن أعداءهم كانوا على خلاف الحالة التى تهون بها مغالبة الأعداء ، ومرة لأنهم غابوا حيث كان ينبغى أن يحضروا أو حضروا حيث كان ينبغى

أن يغيبوا ، فلو تأخر انتباه عبد الرحمن هنيهة وجيزة للجيش العباسى الداهم لما سمعنا به فى الحاكمين ، ولكان الآن فى غمار الألوف الذين فشلوا لأن أعداءهم أدركوهم لحظة من اللحظات قبل الانتباه ، لا لأنهم أقل فى الذكاء أو أضعف فى العزم أو أجهل بأسباب النجاح

❋❋❋

والعجيب فى أمر هؤلاء المغامرين أنهم ما خلوا قط من عنصر الخرافة والتنجيم والتعويل على أمثال النبوءة والفأل التى كان يعول عليها عبد الرحمن ، ونحسب ان الأمر طبيعى — بل ضرورى — فى كل من يعاملون القدر أو يعاملون الغيب المحجوب ، ويثق بهم كل من تحتاج مساعيهم الى عنصر غير العناصر المعروفة المكشوفة التى تدخل فى الحساب فيبقى فى عقولهم مكان خال لحساب المجهول الذى يأتى بما ليس فى الحسبان ، ويستوى فى ذلك من يخوضون غمار الحوادث ومن يخوضون غمار الحروب ومن يخوضون غمار البحار ويركبون مطايا الأخطار ، فسلامتهم جميعا من هذه المهالك لا ترجع الى شىء من تدبيرهم ، ولا فرق فيها بين حيطتهم واقتحامهم ، ولهذا تطبع عقولهم على الحيلة والحيطة من جانب وعلى

المجازفة والتسليم للمقادير من جانب ...

وبغير ذلك لا ينجح ذو مطمع من هذه المطامع كائنا ما كان ذكاؤه واقتداره وحسن بلائه ، وكفى بذلك دليلا على قدرة الفطرة الانسانية على خلق الايمان الذى هى محتاجة اليه ..

نصف من المعلوم ونصف من المجهول
نصف من التدبير ونصف من التوفيق
نصف من الأصدقاء ونصف من الأعداء
نصف من الماضى ونصف من الحاضر
نصف من الخير والمعرفة ونصف من الشر والجهالة
نصف من العظيم ونصف من الناس والأحداث
نصف من الرجاء ونصف من القنوط

***

ذلك هو المزيج الذى لا غنى عنه فى اقامة الدول وفلاح المغامرين فى هذا الميدان ، وهو فى تاريخ عبد الرحمن الداخل وتاريخ عصره كأظهر ما يكون